عرض كتاب: التشكيل في أعمال الإبرة في أم درمان الفترة (١٨٨٥-١٩٤٠م)، الطاقية

تأليف: بقيع بدوي محمد عبد الرحمن

(معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ودار جامعة الخرطوم للنشر، ٢٠٠٥م ، ١٦٣ صفحة)

عرض: عباس الحاج الأمين

مقدمة:

يميل الباحثون المهتمون بدراسة الثقافات عموماً إلى تصنيف الثقافة بغرض إجراء الدراسات والبحوث إلى قسمين أساسيين، هما الثقافة المادية (Material Culture)، والثقافة غير المادية (Non-Material Culture). يقصدون بالأولى كل ماهو مادي، فيزيائي، ملموس، مما يستخدمه الإنسان في حياته لأغراض شتى وبدوافع متعددة، ويصنعه مما تتيحه له البيئة من حوله من مواد. وقد حدّد بعضهم هذه الأغراض والدوافع في النواحي الاقتصادية والاجتماعيّة والبيئية والثقافية والسياسيّة والجماليّة والدينيّة (العقائدية). أما الشق الآخر من الثقافة وهو الثقافة غير المادية فينضوي تحته كل ما هو معنوي، غير ملموس، لذا يشمل العادات والتقاليد والأعراف والقوانين والمعرفة والدين واللغة والأخلاق وما إلى ذلك مما يكتسبه الإنسان بحكم عضويته في مجتمع ما.

على ضوء ذلك – وبغض الطرف عن الهوى التصنيفي الذي ألمحنا إليه أعلاه – إن الكتاب الذي نسعى إلى التعريف به هنا يقع في ميدان دراسات الثقافة الماديّة

في السودان، ويصَنّف ضمن أدبياتها، بل يعدّ من الدراسات الرائدة التي أنجزت في هذا المضمار. وينتمي إلى مدونات الطبقة الثانية لهذا الميدان، إذا اعتبرنا أن بدايات الكتابة عن الثقافة المادية في السودان أنجزها باحثون أوربيون ونشر معظمها في مجلة السودان في رسائل ومدونات، صنفت – إلى حد كبير – على أنها وصفيّة تصنيفية، لم ترق إلى مستوى الدراسات التحليليّة الأكاديميّة المتعمّقة التي أنجزها في ما بعد باحثون سودانيون مختصون في الفولكلور، عقب إنشاء شعبة الفولكلور كواحدة من الشعب الثلاث المكونة لمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية في سنة ١٩٧٢م. نذكر منهم على سبيل التمثيل علي بحرالدين علي دينار، يوسف حسن مدني، عبدالرحمن أبوسبيب، بقيع بدوي، عبدالمجيد أحمد عبدالرحمن وغيرهم ممن يمثلون الطبقة الثانية للباحثين في الثقافة المادية. وجلّ هذه الدراسات كتبها أصحابها إبّان حياتهم الطالبية لنيل درجات عليا في علم الفولكلور من ذات الشعبة، كما هو الشأن بالنسبة لدراسة بقيع بدوي التشكيل في أعمال الإبرة في أمدرمان التي هي أس الكتاب هذا.

عن الكاتبة والكتاب:

صدر كتاب: التشكيل في أعمال الإبرة في أم درمان عن معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بالاشتراك مع دار جامعة الخرطوم للنشر في سنة ٢٠٠٥م. ويقع في ثلاث وستين ومائة صفحة من القطع المتوسط. وقدّم له البروفيسور الأمين أبومنقة محمد مدير المعهد، والذي شهدت فترة إدارته حركة نشر دؤوبة ومتصلة أثمرت عشر اصدارات أو تزيد، خلاف إحيائه هذه المجلة بعد انقطاع. وصمم غلاف الكتاب المهندس خالد عبدالله القائم على شؤون الكمبيوتر بأرشيف الموسيقى التقليدية بالمعهد. وقد جاء أنيقاً وبسيطاً ودالاً، حيث اشتمل على صورة لطاقية حمراء، ثم وظَّف فيها تقنيتي التكبير والتصغير فأعطاها بعداً جمالياً يتسق ومضمون الكتاب. وفي الصفحة الخلفية للغلاف نقرأ سيرة ذاتية لبقيع بدوي حيث تشير إلى بكالوريوس الفنون

الجميلة والتطبيقية من معهد الكليات التكنولوجية (١٩٨٠م) ودبلوم عالي في علم النفس التربوي جامعة أم درمان الإسلامية (١٩٨١م)، ودبلوم عالي في الفولكلور من ذات المعهد (١٩٨٨م)، ثم دكتوراه في الفولكلور من جامعة انديانا (الولايات المتحدة) (٢٠٠١م). ولها العديد من الأعمال العلمية المنشورة وبعض الكتب تحت الطبع. ويتجلى بوضوح توظيف الكاتبة لمعرفتها الثلاثية الملامح، أعني التشكيلية والتربوية والفولكلورية، في معالجة موضوع الكتاب، إذ تتبّدى ظاهرة للعيان من النظرة الأولى لعناوين فصوله (الفصل الثالث مثلاً). كما يشي الفصل الرابع بالبعدين التشكيلي والفولكلوري لهذه المعرفة.

محتويات الكتاب:

وزعت مادة كتاب التشكيل في أعمال الإبرة في أم درمان على أربعة فصول وخاتمة، وذيّلت بثبت للمصادر والمراجع (باللغتين العربية والإنجليزية)، وبقائمة ضمت ستة ملاحق هي: ملحق الصور والأشكال (٤١ صورة وشكلاً)، وملحق الرواة (٦٤ راوياً، منهم سبعة رواة فقط من الرجال)، وفيه تعريف بكل راو من حيث العمر والتعليم والوضع الاجتماعي، وقد وفّقت الكاتبة في ذلك إلى حد كبير. ثم ملحق ثالث احتوى على نموذج لمقابلة مع راوية، وملحق رابع لنموذج من القصص الشعبي الديني الذي يروى في بيت الخياطة (قصة الحسنى الجميلة)، وملحق خامس احتوى على قصيدة للشاعر أحمد محمد الشيخ (الجاغريو) جاءت تحت عنوان "مناحة الطاقية". ثم ملحق أخير ضمّ قائمة بأسماء الرواة مشفوعة بالأرقام المتسلسلة لأشرطة التسجيل الموجودة بها مقابلة كل راوٍ والمودعة بأرشيف الفولكلور بالمعهد، والتي بلغ عددها ثمانية أشرطة. يلاحظ على هذه القوائم – خاصة قائمة الأشكال والصور – أن بعض الصور أشير إليها على أنها أشكال، وهي ليست كذلك (انظر مثلاً الشكل رقم ٣٦ فهو

صورة لشاب يضع الطاقية على رأسه تبين طريقة من طرائق وضع الطاقية على الرأس عند السودانيين).

الفصل الأول سرد لتاريخ نشأة وتكوين مدينة أم درمان، مبيناً موقعها الجغرافي ومناخها، وموقعها التاريخي وتأسيسها، ووصفها في عهد المهدية كعاصمة للبلاد من حيث تقسيمها إلى القطاع الشمالي والقطاع الأوسط والقطاع الجنوبي، مع الإشارة إلى معالم كل قطاع وأحيائه. ثم جاء الحديث عن سكان أم درمان أيام المهدية وعن مساكنهم وعماراتهم وتطورها من البناء بالقش "الرواكيب والقطاطي" إلى البناء بالطين- خاصة في عهد الخليفة عبدالله التعايشي- وعن أشكال "الحيشان" وسماتها وما بها من "نفّاجات"، وقد أشارت الكاتبة إلى نوعين منها. وبعد ذلك وصفت أمدرمان في فترة الحكم الثنائي حين انتقلت العاصمة إلى الخرطوم وخطِّطت أدرمان وقسمت إلى أربعة أرباع، كل ربع يتكون من عدد من الحارات والفِرْقان (جمع فريق ويقال أيضاً حي). ولعلّ أهم ما أشارت إليه الكاتبة في هذا الشأن أن تقسيم أم درمان إلى مناطق سكنية كان تقسيماً قبلياً، فقد كانت كل منطقة تمثل قطاعاً قبلياً، وكان لكل قبيلة أو جماعة شيخ مسئول عنها. كما قسمت بعض الفِرْقان تبعاً للحرف التي يزاولها السكان من عتالة وحدادة وعصر زيوت. وتحت عنوان سكان أم درمان في فترة الحكم الثنائي تطرقت الكاتبة إلى مسألة التخطيط والتطور العمراني للمدينة. ثم اتصل الحديث عن العمارة إبّان هذه الفترة وحتى أربعينيات القرن العشرين.

أما الفصل الثاني فقد كرّس لوصف مجتمع أم درمان على عهدي المهدية والحكم الثنائي، موضحاً الملامح السياسية والأيدلوجية لكل منهما، وأثر ذلك على البنى الاجتماعيّة والاقتصادية والأخلاقية والثقافية والدينية في مدينة أم درمان. ثم تطرقت الكاتبة إلى الشأن التعليمي في كل فترة على حده، وأهم ما ذكرته في هذا الصدد أن المقصود هو التعليم بالمفهوم الأروبي أو الغربي (Education) والذي يعني

القراءة والكتابة للإلمام بضروب المعرفة، وبهذا المفهوم يمكن أن تنتفي لفظة التعلم في غياب القراءة والكتابة. مما دفعني إلى ذكر أهمية المقصود بالتعليم في هذين العهدين، أن الكاتبة أولت جانب التعلّم في بيوت الخياطة في أم درمان عناية كبيرة في بحثها، وعندئذ تشير إلى أنّ بيت الخياطة هو المؤسسة التعليمية التي تتلقى فيها الفتاة ضروب العلم والمعرفة، وذلك بالمفهوم الشامل للتربية لدى المجتمعات التقليدية التي لا تعتدّ بتعلم القراءة والكتابة كشرط أساس لاكتساب المعرفة، إذ يمكن للفرد أن يتعلم دون الحاجة إلى ذلك، ويحدث ذلك عادة بالسماع والملاحظة والمران، على نحو ما ذكرت الكاتبة إتكاء على تعريف بروفيسور سيد حامد حريز للتعليم التقليدي في المجتمعات الإفريقية.

ويعدّ تناول الكاتبة لوضع التعليم في أم درمان على عهدي المهدية والحكم الثنائي رابطاً موضوعياً بين الفصلين الثاني والثالث، ومدخلاً ذكياً للحديث عن دور بيوت الخياطة كمؤسسات تعليمية في مجتمع أم درمان، وهو ما شكل مادة الفصل الثالث. وفيه خلفية تاريخية عن التعليم في السودان بشكل عام وتعليم المرأة على وجه الخصوص. ثم عرّفت الكاتبة بماهية الخياطة استناداً على تعريف واحد فقط وهو التعريف الذي أورده ابن خلدون في كتابه المقدّمة، عند حديثه عن صناعة الحياكة والخياطة والفرق بينهما. وحبّذا لو توسّعت الكاتبة في هذه الجزئية واطلعت على المعاجم اللغويّة ومراجع أخرى لإلقاء مزيد من الضوء على ماهية الخياطة، الشيء الذي يثري الدراسة ويفيد القارئ. ثم تحدثت عن ظاهرة الخياطة في أم درمان وأسباب ظهور بيوتها، ثم تلج بنا هذه البيوت لتعطينا فكرة عن نوع الدراسات والمنهج والوسائل والطرق في عملية التعلم، والمواد التي تدرَّس في بيوت الخياطة. وتقرن الكاتبة النظريات العلمية الحديثة مع مسألة التعلم في بيوت الخياطة مستفيدة من دراستها العليا في علم النفس التربوي.

أما الفصل الرابع من الكتاب فهو بمثابة المحور الذي تدور حوله الفكرة الأساسية، ويعالج ما اصطلح عليه في الدوائر العلمية بمشكلة البحث، لذا فهو يعتبر لحمة الكتاب وسداته. كما أنّه جاء معبراً عن عنوان الكتاب، ومحتوياً على أهم مفهومين فيه: خياطة الطاقية في السودان التي تعود إلى أربعة آلاف سنة تقريباً، أي منذ حضارة النوبيين في كرمة. ثم تدرجت في النظر في السجل الثقافي التاريخي مرّاً بكل العصور والحقب حتى عهدي المهدية والحكم الثنائي اللذين يمثلان النطاق الزمني للبحث كما حددته الكاتبة (١٨٨٥-١٩٤٠م). هذا السرد التاريخي يعطي القارئ معرفة بتاريخ وجود الطاقية في السودان، كما أنه مكّن للكاتبة الإمساك بأطراف الموضوع، الشيء الذي انعكس في تحليل المادة في هذا الفصل تحت العناوين: خياطة الطاقية كفن شعبي، وعوامل تطور الطاقية، وأنواع الطاقية، وأدوات ومواد الخياطة، وأنواع الغرز والزخارف، ومدلول زخارف الطاقية في الموروث، والتصميم واللون في خياطة الطاقية، وألوان الطاقية والموروث، والأثر الاقتصادي والاجتماعي للطاقية، وتسويق الطاقية، ومستقبل الطاقية. وتبيّن لنا هذه العناوين الشقين الآخرين – بجانب الشق التعليمي الذي أشرنا إليه آنفاً – اللذين ينهض عليهما الكتاب وهما: التشكيل والموروث الشعبي. إضافة إلى أن الكاتبة حالفها التوفيق في النظر إلى الجانب الأقتصادي في خياطة الطاقية. وهذه الالتفاتة النابهة إلى الجانب الاقتصادي تُعطي البحث صفة الدراسة الفولكلورية المتعمقة في الثقافة المادية، وتنأى به عن دائرة الدراسات الوصفية التصنيفية، ويعضّد ذلك أيضاً موضع الطاقية في الإطار التاريخي والسياسي والاجتماعي والثقافي، وهذه هي الأطر التي تحيط بأي عنصر من عناصر الثقافة المادية، ويوصي الفولكلوريون المختصون في الثقافة المادية بأخذها في الاعتبار عند البحث والدراسة.

خاتمة:

في ختام هذا العرض نشير إلى أن كتاب التشكيل في أعمال الإبرة يعدّ إضافة حقيقية للمكتبة السودانية عموماً والفولكلورية على وجه التخصيص، وأنه جدير بالقراءة والاقتناء. ولا غنى لطلاب الفولكلور المختصين في الثقافة المادية عنه، والإفادة من طريقة تناوله للمادة، والإهتداء بنهجه. كما أشير إلى أنّ الكتاب جاء في لغة علمية رصينة خالية من الأخطاء النحوية والطباعية. ولا غرو فهذا ديدن كل مطبوعات معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية كما هو سمة منشورات دار جامعة الخرطوم للنشر.